«أيام على غيابه»... غمار قمح من ذهب الفكر

سليمان يوسف ابراهيم

يوم التقيت هذا الكتاب مستلقيا الى صدر معرض السلطة الرابعة، في احدى المكتبات، وقد حمل اسم السيدة الهام سعيد فريحه، أيقنت ان الدنيا لا زالت بألف خير، بالرغم مما يشوب ارضها وناسها من نكبات الدهر، لسببين: الاول، ان الاستاذ سعيد انتقلت امانة فكره وسهر لياليه الى خير يد وفكر يؤتمنان على اثمن عطايا الباري لخلقه: الفكر. اما الثاني، فهو عمق الصدق في قرار مواصلة الدرب الشاق حفاظا على ما كابد المؤسس من شقاء ومجاهدة في سبيل تأسيس واستمرار... مرويا بماء وفاء زلال نمير، يتفجر ابدا من معين اصالة كامن في ذات المؤلفة، ولا عجب في ذلك او منه، لان من تربى على شيء شاب عليه، وستبقين موفرة الالق والنضارة، كما كلماتك المشعة، فلا تقلقي سيدتي... لاني من تلك «الهاء» في ختام عنوان كتابك، استشفيت كل هذه القيم التي تزين شخصك وقد جعلت بها من غياب «عملاق دار الصياد»: حضورا راسخا، فكرا ونهجا ومدرسة ما عاشت الكلمة الطيبة المدوية والمداوية الشافية لأوصاب جمة، كان يعاني منها مجتمعنا المريض ولا زال!

قلب وقالب

كل موجود، حدّه طرفين: قلب وقالب، ومن القالب ابدأ، للدخول الى النابض من هذا الفكر المشوق المتعملق بين رفاقه على منكبي الغياب. وللقالب حكاية: يوم حظيت بهذه الجوهرة من قلب وفكر، كنت بصحبة صديق على قدر وافر من الثقافة والاطلاع، غير ان شكل الكتاب، على جودة ما حوى، لم يرقه، وتعجب منه! فبادرته على البداهة: خفف عنك يا صاح، فالبضائع تبحر الى الدول افقيا فوق يم الامواه، اما فكر الصحافي وروحه تيمم شطآن العقول واهراآت النفوس عموديا مع كل صيحة ديك وصحوة فجر... او تريد لسيدة من وزنة السيدة الهام ان تتنكر لشرف بذة كلماتها متى ارادت لها الانضمام الى منتدى ذهب الكلام وجوهر الاحاديث، لتزين اعناق القراء وما اعتلاها من مخازن الفكر؟ فالعمود الصحافي والسيدة الهام يا صاح صنوان وخدينان: فهي تقيته من لدن فكرها النير، وهو يبادلها العطاء نموا وتقدما وارتقاء على مدارج الخلود والبقاء. لذا، اني اجد الارتباط وثيقا بين شكل الكتاب، ومضمونه طيب المذاق، بهي الطلة والفواح طيوبا عطرة ما دام في عرق يراع الصحافة حبر يجري! فهز صاحبي رأسه بايماءة رضى عن منطق التبرير الذي اوردته... ولكن حتى اليوم لست اكيدا من صحة ما اوردته له، هل اصبت في تبرير ما انا ذاهب اليه ام لا؟ لست اعلم.

ستبقين موفرة الألق والنضارة، كما كلماتك المشعة

أيام على غيابه

أدب انساني

لست في هذه العجالة بمعرض شرح وتحليل لما حوى الكتاب من رائع القول ونفيس المقال، غير اني موص كل من رام توسيع مداركه وكشف كنه الانسان فيه وعظمة الانسانية في شخص كاتبته، ان يدخل حرم «أيام على غيابه» بكل اندفاع وخفر: لانه في الاولى لن يسلو الكتاب بسهولة، اما في الثانية فلأن الكتاب بكل ما ضم، انطوى على أدب انساني وقور واجتماعي لاذع، فيه من نطف حبر الاستاذ سعيد فريحه - رحمه الله - الكثير الوفير من غير ان يفتقد لحضور المرأة المصلحة بقلب محب والثائرة بيد اشتد ساعدها، ناهيك الى طيف انثى تضمخ الورق بعطر فكرها الثقيف وشذى حضورها قلبا وبصيرة وعاطفة... بما اكسبتها الايام من عميق التجربة وسعة الاطلاع، مزودة شخصها بقوة الصبر وشدة المراس على مواجهة ما يعترض طموحها والاحلام من صعاب... فما العجب في ذلك؟ وهي ابنة: عن حضن مهنة المتاعب درجت، وفي صحن دار الكلمة حبت ونمت وترعرعت، منذ بدء الصياد برحلات صيده ونصب شباكه للحسناء التي ابهرت عينيها الانوار المتسللة يوما بعد يوم الى شغاف قلوب القراء ومطاوي فكرهم بعثا للاستنارة بضوء حقيقة لم يخفت يوما، نزولا عند رغبات، او سقوطا عند مزالق محاباة!!

«الصيادة الفتية»

فالمقالات التي اجتمعت في جعبة «الصيادة الفتية» على اهميتها وتنوع ابوابها، ادعو القراء لريادة روضها الغناء... اما انا، فسأتوقف عند ما استوقفني في الاهداءين، وما لفتني في ذكرى غياب الوالد الغالي والكلمة المقدمة.

ففي الاهداء الاول اجد نفسي في حضرة سيدة كريمة تفيض من معين مودتها وغمار تمنياتها على كل من سيترافق ونبع كلماتها الهادرة في الوجدان والمخيلة والمنبجسة من فوهة فكر نمير نير، لانها هي الخبيرة الخبرة عن قرب بأن الكاتب يحيا مديدا ويملك سعيدا بقدر ما يقبل عليه متناولو فكره قراءة وتحليلا... ناهيك عن تمنياتها الصادقة لهم بتحقيق امانيهم من خلال مساعيهم في الحياة، كما تحقق لها التقرب من قرائها ومحبي كلماتها عندما أبصر مولودها من ورق وحبر ممزوج بالكثير من روح امه ليتأكد له طول العمر!!

مرورا بالاهداء الثاني، الاكثر حميمية والتصاقا بحياتها، حيث تهدي كتابها الى من سرى المثل فيه انه اعز من الولد، حفيديها، الياس والهام سركيس. كيف لا وهي من قيض لها ان تهبهما الوفير من عزها... وهم على وراثته عنها لاحقين.

اما عن كلمتها لوالدها - الاستاذ سعيد فريحه - في ذكرى غيابه الثانية والثلاثين، المكتوبة بماء عطر السنين ممزوج بحبر القلب وتبر العقل، وقد نثرته على دروب الاسطر، حفظا لغال رحل تاركا بين يديها وديعة العمر وهو - رحمه الله - على تمام ثقة انها من خيرة من يؤتمنون... فتلقفت الوديعة هذه، كمن يحتضن كرة النار بالكفّ والساعد والقلب والفكر، لعظم غلاوة المؤتمن، وان كان الوطن يمر، ارضا وشعبا، بأسوأ الازمان مرارة. لقد ائتزرت الهام بما حيك لها من لباس البأس محاربة اليأس معتمرة قبعة الايمان والتفاؤل بغد وطن ومواطنين... وتابعت السير، مطمئنة والدها الغائب الحاضر في غير موضع، حيث تتوجه اليه بالقول: «نطمئنك الى اننا نرى، في نهاية هذا النفق المظلم، قبسا من نور... فلا تيأس، اننا بالغوه»... مما يؤكد اصرارها ومتابعة المشوار، تجسيدا لحلمها اليوم الذي تختصره «في تحقيق بعض مما يسعى اليه». وكأنه لا يزال حيا يرزق!!

الكلمة الناصعة

... وأتقدم، لمتابعة قراءة، فيمثل امامي ما هو أبلغ وأفصح في اختزال الايام وفك رموز مآتيها وبالاخص ان جاء من رسم كبير راسخ في دنيا الكلمة والفكر النيّرين من وزنة الوالد سعيد فريحه، الذي قضى العمر شاخصا الى البعيد محتجبا خلف دخان لفافته، وكأنها «ستارته» المحببة لسعيه خلف صيده الذي كان يتمناه، ثمينا وفيرا، عن شاطئ مجتمع يعوزه الكثير من عقاقير الاصلاح ومراهم التقويم التي كان يقدمها وصفات وصفات، من غير منّة ولا تقتير بكل ما ملك من دماثة الخلق وطلاوة العبارة على وفير من نقد يلذع من غير ان يدمي... وقد ترك في قلم «إلهامه» - ابنته - سيلا من حبره وفيضا من خلقه... الى ان بدت صيادة اليوم طي صفحة صياد الامس وكأني بالمؤلفة تريد ان تقول للناس: «نحن صنوين، وجهين متلازمين لعملة واحدة: الكلمة الناصعة الهادفة الى اصلاح نحو الافضل والارقى بالوطن ومواطنيه».

ختاما، هنيئا لوطن ومواطنين بك، شبلة من عرين أسد الكلمة، زمن الاحاديث الماتعة وهنيهات صفو البال والقلب، ايام الرجال والرجولة الحقة... التي منها ترك الوالد بين اصابعك ريشة تضخ المطابع بدم حبر انثوي من نزفها، يهادي الدمع ويهادن الرجولة قيادة لسفينة «الصياد» بما ومن ضمت... وفي وقفتك؟ ثقة المواجهة، وفي عينيك؟ تترقرق امواج الوصول ونيل الارب... بحركة من مجاذيف اهدابك، المجازفة ابدا في سبيل تحقيق احلام موعودة. سيري سيدتي، فمن كانت بمثل اصرارك والثبات، اشرعتها واصلة ميناء الامان، لا محالة!!■